ضحكات من زمن القتل غيلة ..

قصة بقلم صلاح عيسى

١ ـ النبش في جراح قديمة .. ولكن طرية

احتضنت قدها بين ذراعيّ . ضغطتها بقسوة خائفة . شممت في ديمومة الاحتضان عطرها . استنشقته في شهيق طويل كأول أنفاس الغريق . تطايرت في نفس اللحظة فكرة دامعة كانت تطاردني بالحاح منذ أيام . في الشرفة انعكست ألوان الشفق على وجهها . اختنقت الشمس هناك عند حد الافق . ابتلعها النهر . ودعناها معا صامتين . أحاط ذراعي خصرها . دسست كفي في شعرها الطويل . قذفت « النبس » بعيدا . انسدل شلاله فأحاط ملامحها . صاحت محتجة قبلتها قبلة طويلة .

قالت : تعلمت الشقاوة .

أدرت « الفرامفون » . تسللت شهرزاد كورساكوف . جلست على « الشيزلونغ » . أسندت رأسي الى فخذها في خفوت الضوء . امتصت نظراتها المشوقة ملامحي . انحنت . لثمت عيني . بهرني عمق عينيها وصفاؤهما . غابت في دسامة صدرها أكدار قديمة . (في تلك الظهيرة حكى عن حبيبته . كنا حفاة نضرب الفؤوس في أرض رملية . جاء صوت خلفنا يقول : سنزرع هنفانا خضرة . حكى عن عينيها فقال انهما حنونتان كصدر الام . اختنق صوته في النهاية كأنه يوشك على البكاء . كنت صغيرا لم أكابد مرة ضعف الرجال الكبار . خفق قلبي حزنا . ها أنت تلهو الآن في جنة الحب . فأين ذهب ؟ لو بقي لك من الايمان بالخلود ذرة لقلت انه يلهو الآن وسط جنات تجري من تحتها الانهار . ولكان ذلك عزاء القلب المحزون) . أشعلت سيجارة . قذفت بحذائها بعيدا . (كذلك اليوم في أوتوبيس رأس البر . وكنا غريبين تماما . وسألتها عما اذا كان التدخين يضايقها . ابتسمت . أخرجت سيجارة من حقيبتها . خلعت منظارها الاسود) . تناولت السيجارة . سألتني عما فعلته في غيبتها :

ـ لا شيء ، قرأت ، ومزقت قصة كتبتها .

ـ أنت تمزق كثيرا .

ـ قرفان .

عدت بالبيرة والاكواب .

ـ لن أشرب .

باخ حماسي .

ـ ألا تستطيع أن تجلس معي صاحيا ؟

ـ لا أتعمد هذا .

ترامت . خرجت الى شرفة العوامة . هبط الليل ثقيلا . محاقا كان القمر . وسوست ضحكة في قارب يعبر النهر . استندت بمرفقيها الى حافة الشرفة . تأملت وجهها في الضوء المتسرب من الداخل .

ـ في الليالي المحاقية يكثر الحب في النهر .

لم يرد . قلت ان الظلام كالحزن يبعث على طلب العزاء . في الاسبوع الذي ماتت فيه شقيقتها جاءت بسواد الحداد . بكت على صدري . حكت عن شقيقتها طويلا . عندما مسحت دموعها بشفتي ، ارتجفت شفتها السفلى . كان العزاء ليلتها ضربا من الجنون الكامل . بيد ان شيئا كان يدفعنا للفناء المشترك . عرفت ليلتها ان رأسي المثقل بحزين الذكريات هو صَليبي الذي أحمله .

ـ هل تحبني حقيقة ؟

ـ لا أدري .

نفخت سيجارتها في الهواء . دندنت لحنا كم دندنت به فوق لسان رأس البر . ضربت موجة عاصفة مقدمة اللسان . تفتت الى رذاذ متطاير . ها هو صوتها حزين القرار . مشروخ البحة . أما شعرها فأسود غميق . تطاير مع نسيم الخريف فلمته بيدها . كانت بلوزتها خضراء كعينيها . انشقت عن مجرى نهدين متماسكين . أشم عبيرهما كما شممته أول مرة ليلة العزاء تلك . (بدأت شفتاي جولتهما من وجنتيها . انحدرتا الى رقبتها وصدرها . عندما وصلتا الى النهد دارتا حول كل مساحة فيه . استقرتا فوق فمته . لحظتها فقدتا رقتهما العذبة . كان المريد قد تبتل في محراب الاله ساعة . ساكنا كالصمت كان . هزه الوجه فجأة . مال نشوان كطفل أبهجه ظهور أسنانه . صرخت صرخة خفيفة بين الالم والنشوة . كانت ليلة عزاء) .

توقفت عن الدندنة :

ـ لماذا لا تتزوج ؟

ـ أظن انني كبرت .

ضحكت . استدارت اليّ :

ـ بوسعي أن أشهد بكفاءتك .

تبدو لغزا مستعصيا على الحل ككل شيء حولنا . هذا النهر المظلم كم ابتلع من آمال يائسة . ووسوسة الاصوات على سطحه تبعث على الحيرة . وامس كان سليم يجلس على هذا المقعد الاسيوطي يحكي عن الخطر .

ـ ألم تفكر أبدا في الزواج مني ؟

نفيت . سألت بكلمات مدغمة عن السبب .

ـ لا يمكن أن أتزوج لغزا .

ـ ولكنك تعرفني منذ سنوات .

(ذلك الصباح المشحون بالقلق كم مضى عليه . وكنا يومها غريبين التقيا في أوتوبيس . وها هي أقرب ما تكون . لا تخجل أن تفعل أي شيء أمامها . تفكر وتضحك ، تخلـــع ملابسك ، تمشي عاريا ان أردت) .

ـ أعرف ان اسمك ريري ، وهذه معلومات وافية جدا !!
عادت الى الدندنة .

ـ ... وربما كان اسما مستعارا . وهو على أي الاحوال اسم تدليـل .

عادت من الحجرة الداخلية في روب بنفسجي شفاف :

ـ هل نام أحد عندك ؟

دقيقة الملاحظة ، وذكاؤها خطر :

ـ سليم ابن عمي ، كان في اجازة ، وعاد اليوم الى الاسماعيلية.

ـ والاحوال هناك ؟

ـ كالعادة .. غارات واشتباكات وقتلى .

غابت عن المكان بفكرها لحظات :

ـ شيء مزعج .

ـ نعم .. ولكن لا بد منه .

ثبتت عيناها في عيني . قالت :

ـ أعرف فيما تفكر .

ـ أحيانا يعجبني ذكاؤك ..

ـ أنت تلوم نفسك لانك تجلس معي وتتصـــور انك يجب أن تكون هناك .

ـ .. ولكنه .. أعني ذكاؤك يخونك في أحيان كثيرة .

ـ لا تنكر .. أنا أعرفك ، ولعلك تكرهني لهذا السبب .

..... (.. وكان يتحدث في الصحـــراء عن الحب ليلة .. ووصف حبيبته فتغزل فيها شعرا رقيقا . استعدته مبهورا . طالبته برسائلها . غضب . لقنني درسا في احترام ذلك الجزء الخاص من حياتنا . وأثرت مشكلة : أيحق لمثلنا أن يحب ؟ قـال : بل يجب أن نفعل . قلت : أفي حاجة نحن لمزيد مـن المشانق ؟ أقدامنا مثقلة بالقيود وفخاخ الطريق أكثر من أن تحصى . ضحك . قال : أنت ككل مراهق تحلم كثيرا . قلت : السجن يترصدنا وربما الموت . سألني : لماذا أنت سوداوي ؟ وكان السوط الذي قتله يخرج من مدبغة مجهولة في تلك اللحظة . فيا للمهزلة) .

احتست البيرة . نسيت سابق رفضها .

ـ ضحيت بالكثير فبلا .. ومن حقك أن تستريح .

ـ كلام يقال ليس الا ..

بمرح متكلف قالت :

ـ يوما ستتحقق أحلامك ، ستأمن اذ ذاك تماما .

ـ متى ؟.. وهل اكون بين الاحياء حقا ؟

ـ هذا مؤكد .. وستعمر ذلك المكان هناك كما فعل أصدقـاؤك في « سيبيريا » .

(كبر القلب حقا ، والا فأين رجفة الاحساس بالنشوة عند ذكر أحلام الزمان الذي مضى . قتلها التكرار ، كما قتله السوط ، وها هو الكدر يخنق كل شيء . لم يكن كمثله أحد في الطواف بالاحلام في كئيبات الليالي . في اليوم التالي ، لمحتها في كازينو يطل على النهر. حنيت رأسي محييا من بعيد . ابتسمت ابتسامة داعية . وحيدة كانت كنبتة برية جميلة . تحدثنا عن الوحدة في العالم . قالت : ما أبشع أن يكون الزحام حولك بلا قلب ، كحقل ذرة كثيف في الليالي المحاقية ، لا تنبىء كثافته الا بالبرودة والخواء والرعب . ولن ينجدك أحد اذا اقترب منك الضر . وأين يهرب المطارد ؟ قلت : أكره أن أدير ظهري للحياة ولو فعلت . ابتسمت . قالت انها درست الفلسفة ثلاثة أعوام في الجامعة ، ثم نسيتها في شهرين فضتهما في المطبخ نطهو المكرونة « بالبشامل » . ضحكت بصوت عال . سمع النيل حديثنا الطويـل فيا له من مستودع أحزان بلا قرار ! وفي المساء ركبت المعدية عائدا الى « عزبة البرج » ، فتح « سليم » الباب . لعن جدي السابع عشر ـ وكان يكرهه دون كل أسرتنا ـ وقال :

ـ نام عمك الحاج منذ زمن ، وايقاظه في هذه الساعة جريمـة كفيلة باعادتك الى المعتقل لتتربى بما فيه الكفاية .

ضحكت نصف ضحكـــة . لم يكن في القلب متسع لكوامـل الضحكـات) .

ـ هل تندم لانك عرفتني ؟

فذفت بالسيجارة الى عمق النهر .

ـ أكره علامات الاستفهام .

ـ ولكني لست نادمة .

ـ معرفتك على حقيقتك مشكلـــة ، ولن أرهق نفسي بعد الان بالمشاكل !

ـ أنت تخلق مشاكل وهمية .. وهذا رأي « سليم » أيضا .

(ماذا يفعل الان وسط النيران والبارود والموت ، وفي أي لحظة من الزمن يترصده قضاؤه) .

ـ « سليم » يكره جدنا السابع عشر ، وكنت قد عثرت بتاريخه في مخطوطة قديمة . تصدى غفر الله له للسلطان العثماني سليم أيام الغزو ، وأثار عليه « دمياط » كلها ، غضب عليه السلطان ، وشنقه على باب زويلة وصادر أمواله ، ولولا هذا لكنا من كبار الاغنياء .

ـ أنت مشاكس كجدك السابع عشر ، وأنا أحبك ، وهذا يكفي .

(يبدو هذا كافيا على الاقل من وجهة نظرها ، وهي مثلي تبحث عن عزاء ، ولعل خيبة الآمال ترصدتها كما ترصدتني . ذهب كل شيء بباخس الاثمان . السجن والعذاب والموت والمستقبل المهدر . وبالمرتب أثثنا هذه العوامة ، واشترينا بدلا . ونحلم أحيانا بسيارة فهل هذا ثمن مجز لحياة الرجل الذي قتلته السياط ذات يوم ؟ ولحظة الفناء المشترك لا يبدو شيئا مهما على الاطلاق . حتى مشهدهم وهم يحملونه الى المشرحة ، ممزق الجسد داميه ، على وجهه لحظة قهر مات بها . وكان المأمور فضي الشارب ، أزرق العينين ، بيد ان احمرار وجهه اصفر تماما) .

ـ ولكن لا بد أن أعرف شيئا عنك !

ـ أنت تعرف كل شيء .

ـ كذب .

نهضت واقفة . قلت ان المدينة مظلمة وكئيبة فمتى يعود الضوء . وصوت عم عبده ـ بواب عوامتنا ـ يأتي مع هواء الليل . ذاك العجوز الغريب ، حزين غناؤه . ضاحك وجهه . أدرت اللمبة الى الداخـل لاقلل الضوء المتسرب .

قلت :

ـ نبه رجال الدفاع المدني عم عبده أمس الى قيود الاضاءة .

بدا انها لم تسمع . بعد لحظة :

ـ تعرف . أحيانا أخجل من بعض ما أقوله في فراشنا . بيد انني أنسى خجلي في المرة التالية .

تهدج صوتها مع الكلمات الاخيرة . قلت ان حزينات الليالـي تتطلب العزاء . وسوست ضحكة عبر ظلام النهر ..

. . . . . .

. . . . . .

عندما صمت الظلام ، انداحت في فراش الفراغ تنهيدة . كانت ذراعها العارية تحيط بي . قبلت أناملها . قالت بصوت يقطر براحة عميقـة :

ـ تذكرتك وأنا بالبحر .. وسألت نفسي عما تفعل .
ـ نعم .
ـ ولاحظ المحيطون بي اني ساهمة فحاصروني بالسؤال .
ـ مشكلة .
ـ تعللت بالحزن على أختي ، واحتضنت أطفالها ، فهاج ذلك احزاني وبكيت .
ـ فلت انها ماتت منتحرة .
ـ نعم من عوامة كتلك .. وتذكرت صديقك الذي حكيت عنه .
ـ سليم ؟
ـ لا الآخر .
ـ لويس ؟
ـ لا .. الذي قتل في السجن ..
أشعلت سيجارة فتناولتها مني .
ـ كثيرون ماتوا في السجن ، ومات الآخرون في الزحام .
في وهج السيجارة المشتعلة بدت صورتها في المرآة . شعرها مبدد على الوسادة حولها . (أعرف عمن تريد أن أتحدث . ولكن فلتطلب ذلك بنفسها) .
ـ لا أذكر .. حكيت لك كثيرا .
ـ شريف ..
ـ آه .. شريف عطية .
كررت الاسم . قلت انها تنقنق به في لذة ، فما السبب يا ترى ؟ وكنت أحب اسمه دائما . كان شاربه غزيرا كشارب فلاح لم يغادر الحقل أبدا . لكنه كان رهيف القلب . ومن المؤسف انني لا أعرف أين حبيبته في هذا العالم الواسع الزحام . فمن يسمع مختزن الذكريات ؟ ومن يهمه سواها حنين عاشق سجين ؟
ـ احك لي عنه ..
ـ حكيت لك كل شيء ونحن في رأس البر .
ـ في كل مرة نحكي تذكر جديدا .
ـ تهتمين به كثيرا .
ـ قتلوه ؟
ـ نعم .. ضربا بالسياط .
ـ كان صغيرا ؟
ـ في حدود الثلاثين .
ـ كلاب .
ـ نعم .. ولكن الزمن تغير ..
ـ احك لي عن هناك .
تسللت أنغام كورساكوف عبر الصالة . كان حفيف النسيم يداعب سطح النهر . كحة عم عبده تتصاعد من بعيد .

* * *

قلقا كان الصباح . شمس يوليو قائظة . جاءت جلستي بجوارها في الاوتوبيس الضخم . في منحنى حاد وهو يغادر بنا حدود المدينة ، اهتزت . سندتها . اعتذرت . شكرت . لم يكن معي سوى حقيبة صغيرة بها بعض الملابس . مجموعة الكتب في يدي . سألتني مرة أن أسدل الستار على النافذة . وأخرى أن أفتح زجاجها العلوي علها تجود بنسمة هواء . جسدها كان رشيقا ولينا . كدسامة النهر كان صدرها . سألتها عما اذا كان التدخين يزعجها . نفت بابتسامة . أخرجت علبة سجائرها ، قالت : جنبتني الحرج ، كنت أخشى أن أفعلها وحدي . استأذنت في تصفح الكتب . تركتها لها . قالت بعد لحظة :
ـ أتدرس الفلسفة ؟
ـ مجرد اهتمام .
ـ ولكنه لا يناسب يوليو ولا رأس البر .
ابتسمت . لم أعلق .

٢ ـ كل شيء ممنوع ... حتى حزين الفناء

(أغلق الشاويش عبيد باب الغرفة في أول المساء . ارتميت على حشيبي مرهقا . كنت قد عزفت ثلاثة فراريط ، وقلت انها ستبشر غدا . استلقى بجواري على فراشه . أشعل نصف سيجارة ناولني اياها . أخذت نفسا طويلا وأعدتها اليه . قلت :
ـ تعبنا اليوم .. تحويل رمال صفراء الى مزرعة يبدو مستحيلا.
ـ ولكنه سيحدث .
بدت بسمته رقيقة . كانت جزءا من وجهه الطفولي المرح . وقلت انه يبدو وسيما ، ترى بماذا تغزل فيه حبيبته المجهولة . وهذا الزحام حول دورة المياه في نهاية الغرفة يوحي بأن الزملاء يخططون للغد . أنوفنا تعطش للعطر فمتى تنتهي المهزلة من العالم ؟ نفدت السيجارة . لم أكن قد ارتويت بعد . قلت :
ـ يذهلني تفاؤلك .
هز رأسه وتأمل سلك الكهرباء المتدلي من السقف . تحدث طويلا عن الغد . هدهد كلامه الحاني رأسي المثقل . تذكرت جدي السابع عشر . قبل أن أنام تصاعد صوت من الغرفة المقابلة يغني بصوت شجي . صعد من فوق حائط الدورة . صاح طالبا من المغني أن يرفع صوته . مر سجان المساء في الطرقة . صاح :
ـ نام انت وهو .. عنبر ٣ .. ممنوع الغناء .
قلت اننا نحلم كثيرا بالغد . تشتاق أنوفنا للعطر . وها هو كل شيء ممنوع ، حتى حزين الغناء) .

* * *

في صف الشماسي الطويل عاصت عيوني . زحام البشر لاه وعابث كمياه البحر . ها هي العشة فأين الشمسية الخضراء ؟ تصاعد صوت من خلفي مناديا :
ـ طارق . أستاذ طارق .
كانت مبللة بماء البحر . في مايوه مشجر بأوراق توت زاهية . جففت جسدها . نشرت شمس الاصيل دفئها عينا . قالت انها تحب مياه الاصيل . يكون البحر دافئا وخاليا . قلت ان ذلك كله جميل. لكني أكره الغروب . يتعسني رحيل الشمس . أنقبض عندما ينقض الظلام على الحركة والحياة والوضوح .
ـ مشاعرك غريبة . الفلسفة مجرد رداء تلتف به . أظن ان الفلاسفة باردو العقول .
ضحكت قائلا :
ـ لا تبالغي . ليس كل قارىء لكتاب في الفلسفة فيلسوفا .
ـ أظن انك شاعر . ألم تكتب الشعر ابدا ؟
ذلك النبش في طري الجراح ، متى يكف ؟
ـ أعمل بالصحافة . كان لي يوما صديق من أرق الشعراء .
ـ وأين ذهب ؟
ـ مات .
حانت منها التفاتة الى وجهي . غام في عينيها شيء . قالت :
ـ يا خسارة .. لعله كان عجوزا .
ـ نعم في الثلاثين .
تحدثت عن الموت فضحكت لعمق سذاجتها . سألت : هل غدرت به حبيبة ؟ قلت : بل غدر بهما معا الموت . كانت رغبتي في البوح تقتات باخضرار عينيها وذلك الحنين المرهف في ملامحها . تحدثت يومها عن الصحراء طويلا . تلك السنوات المعذبة كيف مرت . وفي أي مستقر بالقلب والنفس ترقد الآن بقاياها ، أليس من واجب الوفاء أن نزور يوما ضريحها . نتلو الصلوات ندعو بالرحمة لسنوات العذاب .
ـ أنت منهم ؟
ـ نعم .

ـ خمنت هذا من البداية .. عرفت بعضكم أيام الجامعة .

من ؟

ـ نسيت الاسماء . أذكر ان بعضهم غاب في أواسط الشتاء . وغاب الباقي في مقتبل الربيع .

ارتجف جسدها . كانت الشمس تغطس هناك عند حد الافق .

* * *

في ذلك المساء بكت . كنا لحظتها نمشي على اللسان شبـــه وحيدين . أمواج البحر تنطح الصخر في جنون . تأملت سفينة هناك في عمق البحر . حكيت عن انتظار السفن المجهولة . كان منفانا بـلا شاطىء . مجرد ساحات مرعبة من الرمال والفيظ . لذلك لم نفكر في الهرب . وما انفس ألا تجد مفرا سوى وادي التيه . ورغم هذا فقـد حلمنا دائما بالسفائن المجهولة . تأتي محملة بالطعام وبالملابس وأطنان من السجائر . ترسو على شاطىء المنفى . نمضي في داخلها . نلعب ونضحك . نطعم أسوافنا للعطور . ونصفر . توت . توت . ونفلـع عائدة الى عالم الالوان .

ـ وكان صديقي الشاعر قد كتب مرة قصيدة كتلك .

تابعت عيناها حركة السفينة ، وكانت الشمس تغرب خلفهـــا تماما . قالت :

ـ .. ولم تأت طبعا ؟

ـ كلا .. وكان هذا قبل أن يقتل باسبوع .

نطحت موجة صاخبة مقدمة السفينة . تلقاها صامدا . تصاعـد رذاذها فأدرك وجهها . صعدت الى حافة الكورنيش مستندة الـــى كفي . جلست . أشعلت سيجارة .

ـ ... قلت انها كانت ليلة جمعة ..

ـ نعم .. وكان الشاويش عبيد سجان المساء . فتح الغرفـــة وقال : الدنيا حر ، جهنم، سأفتح لكم خلسة لكي تشموا الهواء . ولكن لا أريد ضجة . جلس على حافة الباب . حكى عن أولاده . قال انـــه لم يرهم منذ خمسة شهور . دعا أن يرد الله غربتنا ، كل واحد يروح لحاله ، يشوف عياله . صاح شريف : ليس عندي أولاد يا شاويش عبيد . قال : ترجع للعروسة انشاء الله . صمت لحظة . كان وجهه الصعيدي جامدا . رقفه ندهور العمر والصحة . دعا بعد لحظة : ربنا يسترها معكم . لكن لماذا لا تعيشون كبقية خلق الله في حالكم ، مالكم انتم والحكومة ووجع الدماغ ؟ قال شريف : والفـلابة يا شاويشنا ؟! حك الرجل قفاه ولم يرد . قال فجأة : عاوز أتعشى . جئناه بقليـل من العسل وبقايا خبز . أكل وتجشأ . شارك شريف نصف سيجارتـه الاخير . غنى صوت من الغرفة المقابلة « أنا من دموعي ارتوت عزبـة بزيها » . قال :

ـ يا عم يا بتاع عنبر ٣ ممنوع الغناء . الضابط النوبتجي سيمر بعد شوية .

كنت أجلس خلف شريف مباشرة . قلت :

ـ لا تكن حنبليا يا عم عبيد . ألا تحب الغناء ؟

غابت عيناه عند الباب الحديدي المغلق في آخر الممر . قال :

ـ في بلدنا صييت ، انما ولد . عندما يغني تقف الناحية كلها على رجل واحدة .

تضاحك وحكى عن قريته . جاء زميلان من نواحي سوهاج . هبت نسمة هواء خفيفة . ذهبت لاشرب فوجدت الماء في الدلو مثلجا عـــلى غير العادة . عندما عدت كان يتحـدث عن قراريط ثلاثة يملكها فـــي البـــلد .

ـ أطلع على المعاش السنـــة القادمة ان أذن المولى . ســـأزرع الارض .

ـ شريف باشمهندس في الزراعة . يستطيع أن يفيدك .

في تلك الليلة خطط له شريف المزرعة على علبة سجائر فارغة . هنا حظائر الدجاج . وبنية الحمام هنا .

سرح عم عبيد مع الحلم . وحوض السمك يا شاويش ؟ ضحـك بمرح خجول .

* * *

ـ هيه .. وماذا حدث بعد ذلك ؟

كانفراشنا لينا ، ولكني قلقت .

ـ رويته لك مرارا .

ـ طارق لا تكن سخيفا .

ـ أكره النبش في طري الجراح .

ـ ولكني أحبك وأنت تروي عن صديقك الشاعر .

ـ قلت انهم قتلوه .

ـ ضربا بالسياط .. أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ كلاب .

ـ طبعا كلاب .. ولكن تغير كل شيء .

ـ أكمل .

ـ حكيت لك في ليلة رأس البر لك كل شيء .

ـ وكنت حزينا .. وأحببت حزنك ليلتها .

ـ وبكيت .. فمسحت الدموع عن وجنتيك بكفي .

ـ فقبلت أناملك في لحظة لم أدركها .

ـ وقبلت شفتيك في عمق الليل .. والبحر شاهدنا الوحيد .

ـ وعند الافق سفينة كتلك التي حلم بها .

ـ طارق .. احك .

* * *

في الصباح فتح الباب بضجة هائلة . فتحت عيني على أقـــدام غليظة تدق الارض في غطرسة ، قلت : نفتيش . هددت يدي . أخفيت شفرة حلاقة كنت أضعها تحت رأسي . قال الضابط :

ـ كل واحد أمام فرشته . فتش يا عسكري .

استيقظ الزملاء مكدودين . تثاءب واحد او اثنـان .وقف شريف بجواري . همس :

ـ حملة عسكرية في هذا الصباح المبكر .

قلت هامسا :

ـ هذا جزاء الذين يحلمون دون اذن .

وقف الضابط وقفـةعنترية . قلت لنفسي انه دخل كلية البوليس بالواسطـة . وها هـو يحاول ان يطيل نفسه زورا . يمارسعلينـا فحولته المكبوتة فيهذا المنفى. سيرى كثيرا ويسمعكثيرا سيعود لزوجته في المساء . يروي لهـا قصة الحملة الشجاعة التي قادها . نحولـت مراقدنـا الى اشلاء ممزقـة في وسط الغرفة . حاول واحد او اثنـان اعادة تنظيم فراشهما. انتهى السجانمن تفتيشي . ابتسمت . لم يعثر على شفرة الحلاقـة .انتقل الى شريف . مر بيده علـــى ملابسه . اصطدمتـا بخرفشة ورق. اخرج الورقـــة كانيخفيهـا في وسطه . تناولهـاالضابط . اطبقت يـد شريف على يـد الاثنين محاولا انتـزاع الورقـة منهما . جذبه سجان ثان للخلف . طوقه بذراعيه . التففنـا جميعـا حولهمـا . قال الضابط وهو يفتح الورقـة :

ـ منشور ام محضر اجتمـاع ؟

قرأ فيها قليلا ،ثم قال :

ـ شعر ؟ .. عيناها ؟. وتحلم بالسفائن المجهولة .

توترت شفتا شريف . استمر ببسمة سمية هازلـة .

ـ ولمنكتبت هذا ؟! لنتخرج منهنا ، والشبان كالارز بالخارجزام اكثر مـن واحدمحتجا ، تصاعدت همهمات من هنا وهناك « لا داعي لكثرة الكلام » . « حاسب على الفاظك » .

قال شريف ساخرا :

ـ اهنئك على انتصارك في هذه المعركة، ولكن لا داعي للكلام خارج الموضوع .

هز الاخر راسه قائلا :

ـ خمسة ايام حبس انفرادي على الاقل .

وهو خارج ، قال :

ـ طالما دعوتم لشيوعية النساء ، وستحيق دعوتكم بنسائكم.

اندفعت الاحتجاجات من كل جانب . صاح شريف :

ـ اخرس يا كلب .. يا حقير ..

اطبق الصمت على المكان . نظر الضابط الينا نظرة متفرسة .امر باغلاق الباب . دقات الاحذية العسكرية تعكر صمت الصباح .

★★★

قادوه الى الفناء . صعدنا الى نوافذ الغرفة المطلة عليه . كان مبتسما رغم ارتعاشة خفيفة كانت تعتري ساقيه . جاءت ((العروسة)). صليب جلدي متجهم. مرعب الشكل ثبتوها في الارض . وضعوا رقبته في تجويفها . مدوا ذراعيه على الجانبين . ثبتوا الكفين . والقدمين وقف المأمور امامه . اهتز شاربه الاصفر . احمرت حدوده المنتفخة:

ـ تظن نفسك رجلا يابن القحبة .

لم ار نظرته . لكن رأسه المحنى جاهد في الارتفاع . رفض كلمات السباب في انفه . قال :

ـ انا رجل غصبا عنك وعن امثالك من الكلاب.

وبصق في وجهه .

ـ الكرباج يا عسكري .

جاء السوط . طويل . مجدول في نهايته بسلك صلب . عقد طرفه ثلاث عقد صغيرة همس صوت بجواري!

ـ العقد مخالفة للائحة .

ابتسمت حزينا . تهدل شعره الطويل على وجهه . كانت لحيته طويلة كثه ـ هبط السوط على ظهره . التف حول صدره. جز على اسنانه رافضا ان يئن . صاح المأمور :

ـ لن اتركك حتى تقول انك امرأة .

صمت ولم يرد تتالت الضربات وهو ساكن. لم ار ملامح وجهه. تهدل شاربه الريفي الكث . جزت اسنانه على شفته السفلى . تفصد العرق غزيرا من كل ثنايا جسده . فك المأمور ازرار سترته العسكرية. لهث بشدة . استند على عمود كهرباء في الفناء . القى بالكرباج للشاويش عبيد . ضرب مرة ومرتين . صاح :

ـ اضرب جامد يا سجان

ـ الارتفاع القانوني نصف متر يا أفندم ..

هجم عليه كوحش . خطف منه السوط . ضربه به :

امش يا بن الشرمو.... امش .

تكور الشاويش ((عبيد)) بعيدا، واستمر هو يضرب ..

ـ لن ادعك قبل ان تقول انك امرأة . اسمع كل زملائك .. سامع .. لا بد ان يسمع كل هؤلاء .

اشار الى اشباحنا الواقفة خلف النوافذ . كان زملاؤنا في كل الغرف قد صعدوا الى نوافذ عنابرهم تصاعد صوت في غرفة بعيدة :

ـ دعوه يا كلاب

من الذي بدأ اذ ذاك ينشد نشيدنا . لا اذكر . ماذا كانت كلمات النشيد تقول ؟. تاهت من الذاكرة ، كما تاه العذاب نفسه . هل سمع في خدر العذاب اصواتنا المنشدة . ذلك الغضب من اي انحاء القلب تفجر . والصوت يهبط ويصعد . كان الرجل قد توحش حقيقة. برقت عيناه الزرقاوان . امتدت اذناه ،بدا لي لخطتها كذئب بري من ذئاب قريتنا . لم يتنبه حتى الى الزبد الذي احاط بشفتيه . وهو يكرر بايقاع كانما يضبط المسافة بين كل جلده .

ـ قل .. قل .. قل .. قل ..

حفر السوط اخاديد دم احمر عميقة في كل انحاء جسده . تمزقت ملابس النصف الاسفل منه . اصبح عاريا تماما كوليد في سنوات مجاعة . تهتك جسده الى مزق صغيرة . صوت الكرباج وهو ينز في الهواء ، مرعب كالخوف .. ونحن ننشد .. ننشد ..

انكفأ رأسه ..

مات ..

★★★

اصطدمت الموجة باللسان. طالني رذاذها . غاب بصري السارح خلف السفينة التائهة عند حد الافق . تعلقت دمعة متألقة برموشها الطويلة . مددت كفي . مسحت عينيها . فلت ؟

ـ لم اشهد دموع حبيبته عليه .

رفعت ذقنها الى اعلى . واجهني في خفوت الضوء وجهها المعذب . لحظتها بحث القلب عن العزاء . ربت خدها . كم تحرق التذكارات الحزينة من لحظات الفرح . في فرار القلب عكارة هيهات ان تنتهي . احتضنتها . غابت شفتي في دسامة شفتيها . كان البحر شاهدنا الوحيد .

٣ ـ ترحل حمامة مكسورة الجناح

عند الظهر نحدث واحد بجواري عن فضاء الله كيف يرد ؟ .وشغلت بالبحث في الموضوع . تحدث آخر عن الامانة التي عرضت على السماوات والجبال والارض فأبين ان يحملنها وحملها الانسان فكان ظلوما جهولا . جهاز ((التيكرز)) يدق في الطرفة دقاته الرتيبة المزعجة. نظرت الى التليفون ، وقلت لعله يحمل صوتها . في اي مكان من هذا العالم الخانق الزحام يختفي . رمى واحد بشريط طويل من الاخبار امامي . قرأته بسرعة . عامت امعائي .قتل . قتل . قتل . اشارت زميلتي الى خبر في يدها . قالت :

ـ نقلت اليونيتدبرس جريمة القتل التي حدثت امس في ابنوب. سبعة قتلهم مجهول كان يختفي في الذرة .

في بعض الاحيان تعذبني الحاجة الى ((ريرى)) .لو تحدثت الان ، ربما خف عن القلب بعض اخزانه . كان عم عبده ـ بواب عوامتنا ـ يجلس بجوار السلم . يدخن سيجارة هزيلة كجسده النحيل . قلت انه صامت كالنهر ولكن ما ابشع غضبه . هش اطفالا صغارا خاف عليهم خطر الماء . كان المساء خانقا برطوبة لزجه . استلقيت على مقعدي في الشرفة . هدهد الموج فناطيس العوامة . هدهدني معها . مسح بعض ارهاق اليوم . جاء صوت ((عم عبده)) مغنيا بصوت حزين. اسلمته اذني في اعياء الفراغ . صب فيها احزان صوته العجوز. تسللت ضحكات اطفال من الدور الاعلى فوقي . قلت ان الظلام الخانق يذبل الضحكات لذلك تبدو قصيرة العمر . ويومها بكيت .

(كنت اصغرهم عمرا واقربهم دمعا . حملوا جثته الى المشرحة هناك خلف عنبر ٧ . رأوه من النوافذ .صاح واحد : قتلوه ... الكلاب . اكفهر وجه المأمور خوفا . تعالت هتافاتنا . جاء الضابط مذعورا . فتح الباب . رجانا بصوت مرتعش ان نهدأ . زميلكم بخير ولم يحدث له شيء . كذاب وحقير وكلب كأسيادك . حملتموه الى المشرحة. رفعنا جراول الماء والمباول واواني الطعام . حمل واحد يد المكنسة. صاعد مد الغضب .كنا حزانى الى درجة الجنون. لم يكن موته حتى تلك اللحظة قد عنى شيئا يمكن ان يفهم . تراجع الرجل واغلق الباب خلفه) . سمعت خطوات ثقيلة على ممشى العوامة. انشق الظلام على شبحه الضئيل . كان التأمل الطويل في رمال الصحراء قد ضبب المرئيات امامي . وانا غارق في مقعدي اصبح الظلام قطعة واحدة . اختفى لمعان النهر مع لون ممشى العوامة لم ادر من ايهما جاء .وجدته قليل الجسم . نحيفا كمومياء اسطورية . دعوته للجلوس.

تمتع . قلت :

ـ كان غناؤك شجيا يا« عم عبده» فلماذا توقفت عن الغناء ؟

قال ان حزين الغناء يوجع القلب . رجل عجوز أنا . قلبي ضعيف. اخاف ان اوجعه . ضحكت من كلماته . ناولته سيجارة . قلت اننا جميعا موجوعون . قال :

ـ قلبك أخضر لم يزل (ثم بعد لحظة صمت) بعض الناس يسألون عنك

ـ من ؟

ـ رجال صفراويون

ـ وعم يتساءلون ؟

ـ كل شيء . الاتون والذاهبون . الكلام والصمت .النساءوالرجال وايضا الضحكات

ـ وكيف أجبت ؟

ـ دعوت الله ان يسهل لعبيده واعتذرت بتقدم العمر وضعف السمع .

جلس على حافة الشرفة . قلت ان جسده الضئيل يمكن ان يقع في الماء اذا دفعته هبة هواء . لكنه بدا راسخا في جلسته .

ـ لماذا يسألون عنك ؟

ـ حساب قديم

تأملت ملامحه المتفضنة . كانت عيناه واسعتين حادتين رغم هدل الجفون .

ـ أنت عجوز جدا يا عم عبده

ضحك ضحكة طويلة اكثر مما تحتمل انفاسه . قال :

ـ ولدت ايام هوجة عرابي باشا

ما امتع ان تبدد سام الليلة بذكريات محنطة .

ـ قابلته ؟

لا .. نفوه وراء البحر .. شفته مرة في « الحسين » .كان طويلا وضخما ، ولا ابو زيد في عز شبابه

ولكني قابلت سعد باشا ..

ما اسخف ان يكذب رجل عجوز

ـ كان في اواخر ايامه . جاء الي « مسجد وصيف » لانه كان مريضا . مر الوابور الذي ركبه ببلدنا .

نحن في الاصل من القرشية، نواحي طنطا . انتظرنا الوابور على شط الرياح . لما ظهر خوضت في الرياح بهدومي . كانت « زفير » جديدة ومقام السيد البدوي . الخلق كلهم رموا انفسهم في الرياح. كنت اول واحد وصل .اطل علي المرحوم « ويصاواصف »قال : ابعد يا ابني . تعلقت بحبال المركب . قال : يا ابني تغرق . قلت : لا بد اقابل الباشا . قال : الباشا مريض ولا يقدر ان يقابل ايها واحد. اصررت . مددوا حبالا . صعدت . كانت هدومي مبلولة . عصروها لي. ادخلوني عليه . كان راقدا على سريره بجلابية بيضاء مقلمة وطاقية. رميت السلام . رفع يده الى وجهه وقال : وعليكم السلام .. اسمك ايه يا بني ؟. قلت : عبده القرشي . قال : اقعد يا عبده . قلت :هدومي مبلولة وانت عيان . شد حيلك ياباشا .قال : شدوا حيلكم انتم. انا خلاص . دغرغت عيناي بالدموع . قلت : القلب والعبد والرب راضون عليك ياباشا ، اوعى تسيبنا . قال : خليك شديد يا عبده ، اوعى تبكي . واتشكر للقرشية كلهم واحد .. واحد انا ممنون كتير . قلت: عايز صورة ياباشا . التفت للهانم وقال : اعطيه صورة يا صفية . وخرجت .

صمت قليلا .. ثم اردف .

ـ سموني في بلدنا « عبده اللى قابل سعد باشا »

سرحت طويلا .. عدت من جولتي. كان قد اختفى . هل عاد الى النهر كما جاء منه. حمل الهواء صوته مغنيا « طبباك (اطباؤك) يا جرح ماتوا وأنت لسه حي . يا جرح طيب واختشي . صفصفعليك الحي »

★★★

هدأت سورة الغضب . ترسب الحزن في الغرف . لم يخرج احد الى المزرعة في اليوم التالي . كفنوه وخرج من المشرحة في مقبل الليل . جاءت الاشارة من عنبر ٧ وكان يطل على المشرحة . تصاعدت اصواتنا تودعه منشدة. ارتجفت بالحزن اصوات الرجال المخشوشنة . كانت شهور القهر الطويلة تنساب مع الانشاد . بكيت في اللحظة الاخيرة .كنت اصغرهم عمرا وأقربهم دمعا . اخفيت وجهي في فراشه الخالي بجواري . ظللت ابكي حتى نمت . عشش شبح الموت في الغربة على عنبرنا . سكت حتى حزين الغناء . في الصباح جاء الشاويش عبيد . فتح الباب . خرجنا الى دورة المياه . ابتعد بعينه عن مرمى نظراتي . وانا عائد انتحى بي ركنا « لا تزعل يا استاذ والله الباشمهندز كان غالي علينا . انا عندي اولاد وربنا يسامحني . فيه واحد وكيل نيابة في السجن ويمكن يمر » .

اغلق الباب واختفى . انتشر الخبر في العنابر . ترصد له في كل غرفة واحد . صاح اكثر من صوت : جريمة قتل ونحملك المسئولية. لدينا اقوال عن الجريمة ونطالبك بسماعها . فتح المحضر رغما عن انفه . عندما ادليت بأقوالي ، اصبحت الحكاية مجرد واقعة.. وقلت ان محضر الرجل لا يختلف عن اي محضر آخر ، كسرقة كوز ذرة .

تحول تشريف عطية الى مجرد « سين وجيم » . اما الشعر والحب والآمال التي ماتت ، والمزرعة التي خططها والفراريط الاربعة التي زرعناها معا . ومرة قال : لازم نزرع شجرة ياسمين . وعيون حبيبته المنتظرة خلف الاسلاك . فكل هذا لا شيء .وكذب « عم عبيد » في التحقيق . كذبني . واجهته . اصر على كذبه .

ـ يا شاويش عبيد . كنت واقفا انت والشاويش فضل .والمأمور يقوم بالجلد بنفسه . ضربه اكثر من ٢٠٠ جلدة .

ابتعد بعينيه عن نظراتي

ـ لم يحدث .. المعتقل شريف عطية شتم حضرة الضابط وسب الحكومة ، وتهجم علينا بجردل البول « ودعا زملاءه المعتقلين الى التمرد. وتم التحقيق معه بمعرفة البيك المأمور . فهجم على البيك وضربه ، ورفض التوقيع على المحضر . كسر ذراع البيك المأمور . صدر الامر بمجازاته بالجلد خمسين جلدة حسب اللوائح . اثبتناذلك في دفتر الاحوال . قام الشاويش به لم يزد عن خمسين سم حسب اللوائح.وتم الكشف عليه قبل الجلد طبيا . ولكنه مات في اليوم التالي .

ـ كذاب يا شاويش عبيد . المأمور لم يجبس ذراعه الا في اليوم التالي . وهي سليمة . واطلب الكشف عليها .

ـ الله يسامحك يا استاذ . المعتقل شريف عطية شتم حضرة الضابط وسب الحكومة . وتهجم علينا بجردل البول ..

. . . . . .

فتحت عيني على ضجة في الغرفة . كان سليم يخلع حذاءه العسكري الضخم . الحر شديد . غاب في الحمام . حاول فتح ضلفة الدولاب الوسطى . استعصت عليه. قلت:

ـ استبدلت ريري دولابها . هدومك في الضلفة الاخيرة .. مع الاعتذار طبعا

لبس بنطلون البيجاما . سأل عنها . رددت بتمتمة .

ـ المهم كيف احوالك ؟

ـ اشتركت في عملية عبور ناجحة هذا الاسبوع .

بحماس مزيف قلت :

ـ عال .. اقبل دعوتي لسهرة نحتفل فيها بهذا العمل العظيم..

ـ تشكر ، سأقوم بجولة في المدينة عصرا .. معي رسائل وطلبات

لبعض الزملاء . وقد اسافر البلد بالليل اوحشني عمك الحـــاج وخالتـــك الحاجـــة ..

اخرج من الثلاجة بعض الطعام . جلس يأكل على منضدة صغيـرة في مواجهـــة الفـراش

ـ لم تكتب شيئـا منذ وقت طويـل

ـ بعض القرف

وفي الصباح كـان جهاز التيكرز يدق دقاته الآليـة فـي المر . خطفت شريطـا . كان عـن جريمة قتل في اورجواي . قـال الخبر ان الفاعل مجهول . رغم ان الجريمة تمت في وضح النهار وامام المحكمـة. في تلـك اللحظـة قال صوت خلفي: هذا لـم يعـد جرنالا . اسبوع ولا ورق نواليت بالدورة . سحبت مترين من الجهاز . قلت :

لدينا مصنع جاهز . ضحكنـا بصوت عال)

مصمص عظـام الدجاجـة . قـال :

ـ هذا بطر .. صحفي مرموق ومرتب ضخم وحبيبة معطاء .. مـاذا تريـــد ؟!

ـ الحال من بعضه .. كيف احوالكم هناك ؟

ـ قلت انه عال ، واصحابك السوفييت شدواحيلهم على الآخر.

ـ أصحابـــي ؟!

ـ لا تزعل يا سيدي . اصحابنا جميعا . على عيننا وعلى رأسنا. يعني غلطنا في البخاري . رأسك ابوسها .

ضحك واردف

ـ أنت مريض بالحساسية . اؤكد ان الحالة عال جدا

ـ هكذا قلت في تلـك الايـام ..

اشعل سيجارته . تمدد على الشيزلونج . قال :

ـ لا .. تغير الوضع حقا .. لا ينكر الحقيقة الا اعمى .. والشك مرض مدمـر ..

ـ الوف الارواح ليست لعبـة .

نفخ يضيـق

ـ نعم هي ليست كذلك ، طارت نصف رفعتي في نكتة . شبـان كالورد . لن نظل نبكي على مـا حدث طول العمر . وسنخرب بيوتهـم قريبـا .

ـ الا يخاف الموت ؟

صمت طويلا . قال انه يخاف احيانا . ولكن الامر يختلف .

ـ تعرف .. المسالة بسيطة ،عندمـا تمر على حقل ذرة كثيف في ليلة مظلمـة فـان حفيف النسيم سوف يخيفك . ربما يكون هناك من يترصدك . واذا قتلت ستروح هدرا . اما اذا كانت معك بندقية فلـن تشعـر بالخوف ابـدا .

هززت رأسي . وكان قد راح في صمت طويل . قلت ان عليّ ان اسأل محررنـا الجنائي عن عدد الجرائم المقيدة ضد مجهول . وخطـر لي ان عددها بمـا لا يقاس . سـأل

ـ والاحوال عنـدك ؟

ـ لا شيء .. اصحابك يتلصصون عليّ

قال باهتمـام مفاجيء

ـ كيف ؟

ـ سئل « عم عبده » بواب عوامتنا . واختفى في الشهر الماضي بعض الزمـــلاء

ـ ربما كانت مجرد اجراءات .هل تفعل شيئـا

ـ اصطاد الذباب واحصى الجرائم المقيدة ضد مجهول.

ـ الحيطة واجبة .. حولـك رجال غامضـون .

ـ أيـنهـم ؟

ـ لا تتخابث ..أقصد نساء غامضات !

جلست امامي في الشرفة . بدا ظلام النهر كقابة من الاذرة الكثيفة بلا سنابل كانت . ومن بعيد تتصاعد كحـة عم عبدة فتؤنس وحدتي، قـالـــت :

ـ لا تبدو في احسن احوالـك . ونظرتك لا تعجبني .

هززت رأسي . قلت ان الرصاص ينطلق من الظلام. والفاعـل مجهول . تصرخ الضحية . يصيح صوت من بعيد .

«جايلك .. جايلك ياواد » ولكـن القاتل يخفي الى الابد،ونفتح شراك الطريق افواهها الفاغرة كي تقتنص صاحب الصوت البعيـد . تحدثت عن مسرحيـة قالت انهـا شاهدتها في التليفزيون فسألتهـا عن التفاصيـل باهتمـام مزيف .أخذت تروي بيـد انني لم أسمع شيئا. فقط نعلقت عيناي بشفتيهـا . ابتسم كلمـا ابتسمت . قالت :

ـ انت لا تسمعني .

ـ كنت افكر في انـك لم تسأليني عن شريف .

ابتسمت وقالـت :

ـ ربمـا سأسأل بعـد لحظـة .

ـ قلت بنبرة خاصـة :

ـ الا تريـن اهتمامك بـه غريبا .

ـ يعني .. أحب كل ما يتعلق بـك .

ـ احيانا افكر في انك قد تكونين عرفته يومـا مـا .

ـ لا .. لـم يحدث

ـ كان في الجامعـة في نفس الفترة التي كنت بهـا .

ـ لم اره .

ـ وكانت له حبيبة مجهولـة فهل هي أنت ؟

ضحكت . قالـت :

ـ تلبسك الشـك .

ـ لماذا تحيطين نفسك بالغموض ؟

ـ أخذت ادق مشاعري فلا تكـن طماعـا

نفخت بضيـق :

ـ مع اناس مثلنا فان الغموض يضرك .

ـ لا افهم .

ـ بعضهم يسأل عني وينقب .

شعرت بعينيها ثابتتين في مواجهتي . فيهمـا حزن صامـــت متوسل . اعتذرت بكلمـات سريعـة .جاءت كحـة عم عبده من بعـد قليل . مرت سفينة صغيرة امامنا مباشرة . قال صوت داخلها :

ـ الســلام عليكـم

رددنا السلام في عجب . قال

ـ اعطني سيجارة . الله يكرمـك

قذفت له ببقايا العلبة . أخذ يجدف بقوة حتى مضى. قالت :

ـ سليم سافـــر ؟

ـ نعم .. للبلد .. عنده راحـة ٧٢ ساعـة .

ـ اكرمـوه هـذه المـرة .

ـ قام بعبور . سأحتفل به في « نوتر امور » غدا ، اتأتين ؟

ـ غدا سنويـة اختـي .

ـ مر عـام بهـذه السرعـة .

ـ تقريبـا

قامت . ادارت الراديو . تسللت موسيقى هادئة . بدا الجوعكرا رغم محاولات الاضحاك . شربت كثيرا دخلت . عادت بروب اخضر. اطلقت شعرهـا الطويل . قهقهت بصوت عال . قلت :

ـ انت بخيـر ؟

ـ نعم .. ولكني حزينـة .

ـ خيـرا ..

ـ اختي .. تعرف .. تعذبت طويلا .كانت قد تزوجت حبيبها

بعد قصة غرام طويلة . تنقلت معه في كل البلاد . كان تاجرا ورحالا وفارسا . وسيما اصفر الشعر . ازرق العينين . كان لها ابا ولاولادها ابدا . هل رأيتهم .هذه صورة لهم معي.

أخرجت الصورة من حقيبتها . كانا طفلين جميلين . تأملت طفولتهما البريئة في اشفاق

ـ جميلان . البنت تشبهك كثيرا

ـ أمهما توأمي .. اكتشفت أن لزوجها عملا آخر ..

ـ .....

ـ اكتشفت انه قاتل محترف . مهرب مخدرات وقواد وقاتل.جاء ليله مذعورا ملطخ الثياب بالدم . تصاعدت اناشيد ونهنهات في منزل مجاور . دخل الحمام ، خلع ملابسه . استحم . اشعل النيران في الملابس . ارتدى اخرى نظيفة . تعطر بالياسمين . ضحك وقال : قتلته. انا استاذ في التصويب . طلقة واحدة في منتصف البطن وينتهي كل شيء . ويستر الذرة البافي .

ـ يا لها من مفاجأة

ضحكت ضحكة طويلة عميقة :

ـ مذهلة .. أليس كذلك ؟

ـ يمكن ان تحدث في فيلم سينمائي .

ـ او تنشر في جريدة رخيصة فلا يؤبه فيك ،بيد انها حدثت .

تلوت شفتاها اشمئزازا وفرقا ،قلت :

ـ وكيف واجهت الموقف ؟

علت شفتيها بسمة مشمئزة

ـ كانت قليلة الكلام .. فقط امتلأ قلبها بالندوب.اصبحت مشاركته الفراش عبئا ثقيلا . الم تجرب مرة ان تشارك انسانا تحتقره الفراش. رائحه بدنه تنبعث من عرقه .كالدم المعقود . انفاسه بخراء كانه يأكل جيفة . يده التي تتحسس ظهرها سكينية الملمس . فراشهادموي لزج . وفي عمق لحظات الحب كانت تصرخ مرتعبة وتقوم عارية من الفراش تجري في انحاء الشقة . تحطمت اعصابها .

ـ هيه !

ـ نقلوها الى مصح للاعصاب . هناك قضت فترة . وعندما تصورنا انها شفيت تماما اخرجناها . عاشت سنوات غريبة الاطوار ، تسافر وحدها الى المصايف والمشاتي . واخيرا القت بنفسها من شرفة عوامة كنلك .

ضحكت ضحكات طويلة .. طويلة .. قالت :

ـ وكانت جميلة كزهرة.. شعرها اسود ، وعيناها خضراوان .. رقيقة .. وفي المأتم .. بكت امي وناحت قائلة ((يا طير مقصص ومكسور الجناح)) .

ثقل رأسي فجأة . قلت انني سأضيف هذه الجريمة الى الاحصائية التي سيقدمها لي محررنا الجنائي عن الجرائم المقيدة ضد مجهول . سألتها .

ـ وقيدوا الحادث ضد مجهول !

ـ الرجل الذي قتله زوجها . طبعا

سألت فجأة

ـ ماذا كان اسمه ذلك المأمور ؟

ـ آه .. قابلت العديدين منهم

ـ الذي قتل شريف عطية

ـ آه .. عبداللطيف .. عبداللطيف وجدي ..

غنت فجأة ((طبباك يا جرح ماتوا وانت لسه حي)) . قالت :

ـ هذه أغنية عم عبده المفضلة .. لم تسألني عن أسم أختي.

ـ وماذا يهم ؟

ـ يعني اسمها رجاء .. أليس اسما جميلا !

٤ ـ الكفارات

في ((نوثر آمور)) ،حكى سليم طويلا عن عذبة البرج ، والحاج والحاجة والشوارع والناس . استمعت بنصف اذن. قلت :

ـ صحة العملية الناجحة التي قمت بها

ـ صحتك

ضحكت . تساءلت عن ذلك المجهول متى يأتي فيحل كل المعميات. يستريح القلب الذي أضناه البحث عنه . في الصباح قال محررنا الجنائي : كل الجرائم الكبرى مفيدة ضد مجهول ، وفي توابعها السرقات يضبط الجاني فقط . وتأمل هذا الرجل العائد من بطن الخطر . يبدو نصرا كان قضاءه لا يجري في اثره .

ـ لماذا لم تأت ريرى .

ـ اليوم سنوية اختها

ـ البقية في حياتك .

لم ارد .. بعد لحظة قلت :

ـ وسألت كثيرا عن برنامج الاحتفال ودققت في التفاصيل . وكانت حزينة المرح. طلبت ان تشرب كأسا في صحة اختها لانها كانت حمامة مفصوصة الريش ، مكسورة الجناح

ـ صحتها

ـ وصحتنا ...وكانت حزينة، واجهتها بشكوكك لعنة الله عليك فاحزنها . ومع هذا فقد نمنت لك كل خير . وقالت لي ان انصحك بالا تعبر بغير سلاح حمول الذرة ،واذا مت فاحذر ان تقتل غيله .

ـ كلام طريف .. تركت الفلسفة آثارا

ـ والحال في البلد ؟

ـ عال ..حدثت غارة قرب دمياط وقتل سبعة او ثمانية

ـ وعمنا الحاج ؟

ضحك . قال

ـ الفلسفة وباء ينتشر الى الغرب والكفور . طلعت في دماغ عمك الحاج . اشترى بندقية نصف عمر اخذ يلممها . قلت له :ولكنها بدون ترخيص . نادى الحاجة . امرها ان تذبح دجاجة : استمر يلمع في البندقية ولا كأني هنا .

جاء العشاء . صعد بعض الراقصين الى البيست

ـ قلت له يابا الحاج لا تعرض نفسك للمسئولية . صاح :اخرس انت . لن اذبح كالفرخة . ستكون اول رصاصة من نصيب السائل عن الترخيص

تناول فخذ دجاجة وقال ضاحكا

ـ قلت في سري انه سيخرب بيتنا كما فعل جدنا السابع عشر

شربت بعض النبيذ . قلت انه احمر كالدم . وكانت امس غريبة. ضحكت كثيرا وشربت كثيرا . تحدثت عن الحزن وسألت عن الكفارات ما هي . قلت اطعام مسكين وعتق رقبة . ونقنقت باسمي

قالت : اتذكره اول مرة . كانت على هذا الفراش . ليلتها طوقت شفتاي بنهدها . استقرتا فوق قمته . فقدتا رفتهما العذبة . كان المريد قد تبتل في محراب الاله ساعة . ساكنا كالصمت كان . هزة الوجد فجأة . مال نشوان كطفل ابهجه ظهور اسنانه . وصرخت صرخة خفيفة بين الالم والنشوة . قالت : ليلتها كنت طفلي الصغير

الوحيد ، وكانت اختي قد انتحرت في نفس الليلة .

سرح بصري في شعر اسود طويل يتدلى من مقعد قريب . نازعتني رغبة ان اربت عليه . رفعت عيني . انفرستا في عينين تتفرسان في . وللحظة بدا كل شيء غريبا ومضحكا . عيناه الزرقاوان . شاربه الفضي . زحف الصلع قليلا الى راسه . لكنه هو .. هو نفسه . ضبطتني عيناه في حالة تلبس احنيت رأسي بقوة العادة . ذلك الزمن . سبع سنوات طويلة . السياط والسباب والعمل الشاق والمنفى والموت غيله .. هي هذا الرجل . قمت برغبة حقيقية في المواجهة . قدمته لسليم :

ـ العقيد عبداللطيف وجدي . النقيب سليم ابن عمي .

ضحك قائلا :

ـ العميد .. هذه زوجتي رجاء . الاستاذ طارق سعيد الصحفي . تقرأين له طبعا .

كانت هي نفسها . شعرها الاسود الطويل . عيناها الخضراوان العميقتان . لم يختلج وجهها بشيء . كأنها تدربت على الموقف طوال اليوم . قال محدثا اياها :

ـ الاستاذ طارق شاب وطني ، لكنه مشاكس . شرفنا بعض الوقت في الواحات .

ها هو العذاب يختصر في كلمتين . احنت راسها بجلال . ظل سليم مبهوتا . استمر هو

ـ حسبتك جادا كما توحي كتاباتك .. تناولا معنا كاسا

جلست بدافع غير واع . قال :

ـ هذه فرصة طريفة . الحت رجاء ان نتعشى هنا الليلة . ولولا هذا ما رأيناك

ـ فرصة طيبة يا مدام

ـ مرسي

تفجرت في الصمت كلمات قالتها امس « اختي . كان وسيما اصفر الشعر ازرق العينين» . « البنت تشهد كثيرا : امها توامي »«جاء ليلة مذعورا . ملطخ الثياب بالدم» «ماذا كان اسمه ذلك المامور ؟عبد اللطيف عبداللطيف وجدي . لم تسالني عن اسم اختي. اسمها رجاء اليس اسما جميلا » .

عندما عدنا الى مائدتنا .قال سليم

ـ غريبة .. هل كانت تنتقم منه ؟

ـ ربما .. ولكنها سالتني امس عن الكفارات

وهما منصرفان ، حنى رأسه لنا . بعد لحظات جاء الجرسون . قدم لي صينية انيقة . قال

ـ تركت لك السيدة هذا .

« مفاتيح العوامة. ودولاب الملابس »

٥ ـ الضحكات

كان الهواء عاصفا . البحر يضرب اللسان بقسوة . امواجه عالية كجبال وادي التيه . في نهاية اللسان رأيته جالسا بقامته القصيرة الضعيفة . يغني

يا ليل ... ياليل .. وانا ما اعرفش اكذب
والضفدعة شايله المركب
وابو فصاده ريسها
والقط الاعمش حارسها
يا ليل ... يا ليل وانا ما اعرفش اكذب .

صرخت : يا عم عبده ، سيقذفك الهواء في البحر

استمر يضحك .. ويضحك .. ويضحك

ضربت الموجة اللسان بقسوة فتفتت الى رذاذ صغير . قلت :انزل يا عم عبده .. انزل ..ستقع .

فقهقه ضاحكا :

ـ انت شاب خرع .. رميت نفسي في الرياح وقابلت سعد باشا

ـ لكن هذا ليس رياحا .. انه البحر

ضحك .. ضحك

ـ وماله ، انشاءالله يكون المحيط .. قلت له : شد حيلك ياباشا . قال : شدوا حيلكو انتو

انا خلاص ..

ـ انت عجوز مخرف

ـ رغرغت عيناي بالدموع . قال : خليك شديد يا عبده ... واتشكر للقرشية كلهم واحد .. واحد

. . . . . .

اهتز اللسان . تصاعدت دقات هنا وهناك . فتحت عيني .وجدت شبحه القصير امامي

ـ هل ناديتني يا استاذ ؟

وجدتني نائما على شيزلونج في شرفة العوامة

ـ اجلس يا عم عبده

صعد على حافة شرفة العوامة ، جلس . قلت :

ـ احك يا عم عبده .. احك ...

ورغم الظلام فقد لمعت في وجهه المغضوضن عينان فويتان .

القاهرة صلاح عيسى ابريل ١٩٧٠

بيبليوغرافيا شاملة عن القضية الفلسطينية

تعكف مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، على اعداد بيبليوغرافيا شاملة مع التعريف بالمراجع المتعلقة بالقضية الفلسطينية في مختلف جوانبها السياسية والتاريخية والجغرافية والادبية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية الخ .. باللغات العربية والانكليزية والفرنسية والالمانية والعبرية والروسية . وتشمل البيبليوغرافيا الكتب والمقالات والمخطوطات . وترجو المؤسسة المؤلفين والكتاب ودور النشر ، تزويدها بالمؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع ، أو لفت نظرها عن طريق المراسلة الى مؤلفاتهم أو مقالاتهم وتحديد كيفية الاطلاع عليها .

عنوان المؤسسة :

شارع كليمنصو ـ بناية الاشقر

ص. ب. ٧١٦٤

بيروت ـ لبنان